فلسفة ابن الرومى

لكل شاعر كبير فلسفة للحياة، أو فهم لها على وجه من الوجوه . . وهذه هى مزية الشاعر الكبير على الشعراء الصغار.

فإذا قرأت عشرين شاعرًا كبيرًا فأنت أمام عشرين نسخة من الدنيا، أو أمام عشرين مثالا لها كل منها مخالف لغيره مستقل عنه فى طريقة تمثيله. لأن الشاعر الكبير يشعر بكل شىء حوله. فما من مظهر ولا مخبر إلا وله موقع من قلبه وصدى فى ضميره. ولأنه مستقل فى إدراكه وشعوره ينحو نحو نفسه ولا ينحو غيره، فإذا قرأت شعره فهناك الدنيا كلها ممثلة فى ذلك الشعر على طريقته التى لا تشبهها طريقة. ولا كذلك الشاعر الصغير، أى الشاعر الذى تضيق نفسه بسعة الدنيا فلا يشعر إلا بجانب صغير من جوانبها الكثيرة، والذى يتبع غيره فى إدراكه وشعوره فلا يثبت على قدميه لحظة إلا ريثما يتكىء على سند من سابقيه أو معاصريه. فإن هذا الشعر الصغير شذرة من الدنيا وليس بمثال كامل للدنيا برمتها. وقد تكون هذه الشذرة أجمل وأتقن وأحب وأشهى من المثال الكامل فى مساحته الواسعة ومنظره الجسيم، ولكنه شذرة على كل حال أو خريطة بلد واحد لن تغنيك - بالغة ما بلغت من روائها وإتقانها - عن خريطة الأرض الكاملة، وإن قصرت فى الرواء والإتقان.

فمن الشعراء الكبار من يريك الدنيا كأنها معرض للجمال، أو يريكها متنزه للفرجة، أو كأنها كعبة للعبادة، أو ميدان للقتال، أو طريق للعبور، أو ملعب للسرور، أو يريك الدنيا كما هى، وذلك أكبر الشعراء وأعلامهم فى مراتب الإلهام. أما الشاعر الذى تسأل نفسك بعد قراءته: ما هى الدنيا؟ وما مثالها فى خلدك؟ فلا تهتدى إلى جواب فليس بالشاعر الكبير وإن عد فى المجيدين من الشعراء.

فلابد للشاعر الكبير من إدراك الدنيا كلها، ولابد لهذا الإدراك من صورة تختلف كثيراً أو قليلا من سائر الصور، وهذا هو الذى نعنيه فلسفة الشاعر ولا نتخطاه إلى معنى الفلسفة الشائع بين المفكرين . . إذ لو قصدنا إلى هذا لوجب علينا أن نقول أن الفلسفة أبعد المطالب عن ابن الرومى وأن ابن الرومى أبعد الناس عن الفلسفة، بل لوجب علينا أن نقول أكثر من ذلك أو قريحة ابن الرومى كانت نقيض القريحة التى يحتاج إليها الفيلسوف، لأن الفيلسوف يجرد كل شىء ليراه بعين الفكر حيث تلتقى الكليات وتنعدم الفوارق والأحراز، وابن الرومى كان يجسم كل شىء ليراه يعينى الفنان فى عالم الأنوار والأشكال والخطوط والحركات.

وربما خطرت للقارئ وساوس ابن الرومى وأوهامه وأسراره فحسبه من أهل الباطن الذين ينظرون إلى الدنيا نظرة الروحانية، وقرب ما بينه وبين فلاسفة المجردين على هذا الاعتبار. فيجب علينا كذلك أن نبادر إلى القول بأن ابن الرومى كان نقيض أهل الباطن المتعمقين كما كان نقيض الفلاسفة المجردين، لأن أهل الباطن يتجاوزون الظواهر إلى البواطن ويحسبون الظواهر وهمًا أو كذبًا لا وجود له إلا فى الحس المضلل المخدوع. أما ابن الرومى فكان يعكس الأمر فيلبس الأسرار ثوب الظواهر ويلحق عالم الخفاء بهذا العالم المجسم المحسوس، فالباطنيون ينفون الظواهر ويثبتون الأسرار وابن الرومى ينفى الأسرار ويثبت الظواهر، وكان يلحى الناس لأنهم يغفلون عن نذير الخفاء ولا يتقونه كما يتقون نذير العيان. لأن الخفاء عنده أن هو إلا عيان يراه ويلمسه ويتجنبه ويلقاه.

لقد كان الرجل "جديد" الإحساس فى شبابه وهرمه. . . فعالمه أبداً عالم الطفولة الخالدة الذى يطالع صاحبه أبداً ببهجة جديدة أو خوف جديد: طفولة خالدة ولكنها مروعة لفرط ما ألح عليها من السقم والألم. فهى فى هذه المأدبة الإلهية التى تسمى بالدنيا فاغرة الحس أبداً لكل طارئ جديد من

طوارئ الإغـراء والترويـع، طفولة لم تزدها الـسنون إلا إمعـانًا فى الطفـولة وإغراقًـا فى اللعب وشوقًا إلى الحلوى ورهبـة من العصا واحتـيالا على هذه الرهبة، فلن ترى فى شـعره كله قولة واحدة إلا هى قولة الطـفل الكبير الذى يفهم أضعاف ما يفهم الكبار ولكنه لا يحس إلا كما يحس الأطفال.

أيتكلم عن البصر؟! أيتكلم عن العزلة؟ نعم، ويتكلم عن الزهد والعفة والتقوى وعما شئت من الحكم والنصائح!؟ وزد عليه أنه يتكلمعنها كلام النية والعقيدة لا كلام الخبث والرياء، ثم ما هو إلا أن تعروه بادرة واحدة من بوادر الفـرح أو الحون وغـواية واحدة من غـوايات الربيع أو الخريف حـتى يذهب جميع هذا الحكـم والنصائح فى الرياح وينطلق الطفل الكبير مـصفقًا للمـتعة الجـديدة أو صارخًـا من ألم الجديد لأن الكلمـة العليـا فى هذه "الفلسفـة" للإحساس الطارئ لا للفكر الـسابق أو الإحساس القديم أتسميـها إذن فلسفة "أبيقورية" تنشـد اللذة أينما كانت وتهرب من الألم أيـنما كان؟ . . إن كنت تسمى الطفل الذى يتهاقت على الحلوى ويجفل من العصا "أبيقوريا" فلك أن تعد ابن الرومـى فى جماعـة الأبيقوريـين، ولكن الأبيقورية فـى رأيى ليست "جدة" الإحساس المتفزز للمسـرات والآلام وإنما هى فتور الإحساس وستكانة الشيـخوخة إلى ما يريح، ونفـورها مما يزعج ويثير. وهى فى مـعناها الشائع نقص فى الإحسـاس وليست بزيادة فيـه وإلا فهل تظن أبا نواس شعـر بلذعة الألم أو بنضرة السـرور قط؟ . . هذا هو الأبيقورى فى الأبيـقوريين . . وهو كمـا تعلم واحد من أولئك المتـرفين الذين يطلبـون اللذة ويشفـقون من الألم لأنهم فارتون فارغون لا لأنهم مرهفو الحس مـفعمون بالحياة. أما ابن الرومى فكان يألم ويسر لأن حيـاته هى الألم والسرور، أو لأنه لابد له من أن يحس ولابد للإحسـاس من أن يكون بعض الألم وبعض السرور ولـيس فى وسعك أن تعطله من الإحـساس بهـذا أو بذاك إلا إذا عطلتـه من الحيـاة، وليس فى وسعـه هو أن يطلب اللذة باختـياره أو يجتنب الألـم باختيـاره. لأن الجدول

الرقراق لا يطلب الصفاء ولا يتجنب الكدر، وإنما يصفو ويكدر لأنه ماء ولن يكون إلا من الماء.

فعالم ابن الرومى هو عالم الطفولة الخالدة لا عالم الشيخوخة الوادعة أو عالم "البيقوريين".

والطفولة الخالدة هى الإحساس الجديد بالألم والإحساس الجديد بالسرور. ولقد دام له هذا الإحساس الجديد كأحسن ما يدوم بعد فقد الشباب، ولكنه لفرط طعمه فى الحياة كان لا يقنع إلا بأن يجمع بين "بشاشة الأوطار" وقدرة الشباب.

***

obeikandl.com